البعد الاجتماعي للوطن والمواطنة في شعر خير الدين الزركلي

نسيم العكلة* إشراف: د. أنس بديوي*

(الإيداع: 26 آذار 2023، القبول: 24 آيار 2023)

الملخّص:

يتناول هذا البحث البعد الاجتماعيّ للوطن والمواطنة في شعر خير الدين الزركلي الشاعر السوريّ الذي ناضل في سبيل حرّية بلاده، فصدر بحقّه حكم الإعدام أكثر من مرّةٍ، فكان في شعره يحاكي حال الشعب المنكوب زمن الانتداب الفرنسي على سورية سنة 1920م، فوجدنا في شعره مادةً كافيةً للدراسة كمّاً ونوعاً، وكان نضاله الوطنيّ محفّز البحث لبيان بواعث المواطنة وأسبابها، وكيفية نضاله في سبيل الحرية، إذ سيقدم البحث دراسةً وافيةً لنضاله الوطنيّ ببعده الاجتماعي معتمداً على المنهج السيميائيّ؛ لاستيفاء مختلف أبعاد هذه الظاهرة، إذ سيقوم بتصنيفها وتقييمها وتذوّقها جمالياً ليقدّم صورةً مفصّلةً عنها.

الكلمات المفتاحية: الوطن–المواطنة.

---

* طالبة ماجستير–اختصاص نقد أدبي حديث–كلية الآداب–حماة.

* دكتور–اختصاص نقد أدبي حديث –كلية الآداب–حماة.

The social Aspect for homeland and citizen ship in Khari Al-Den Al-zirikil's poetry

Nassem aloqla * Dr Anas bidiwi**

Abstract:

This research deals with the social dimension of homeland and citizshp in the poetry of the Syrian poet" Khair Al-Deen AL Zirikil`s" who struggalt for the freedom of his country, so he was.Sentenced to death more than once. In his poetry, it looks like the situation of the a ffliacated people during the french mandate over syria in 1920. We found in his poetry sufficient material for study in quantity and quality. His national struggle was the catalyst for research to statement the motives of citizen ship and her reasons, and how to fight for freedom. The research will provide a comprehensive study of his national struggle with its social dimension based on the semiotic approach, to meet the various dimension of this phenomenon. It will classify and evaluate it to provide a detailed picture of it.

Key words: Homeland- citizenship

**Student of Master degree-Specialization Aspecialist at modern literary criticism -faculty of Arts-Hama.

* Doctor -Specialization Aspecialist at modern literary criticism -faculty of Arts-Hama

1-مقدّمة:

يسعى هذا البحث إلى الكشف عن تجلّيات البعد الاجتماعي للوطن والمواطنة في شعر الزركلي الشاعر السوريّ الذي عاش في الفترة التي عانت فيها سورية من اضطراباتٍ حادةٍ، وأوضاع سيئة عانى منها جميع فئات الشعب، فكان شاعر الوطنية والعروبة الذي نذر حياته لمقاومة الاستعمار والدعوة إلى الثورة والاستقلال.

2-مُشكلة البحث:

إنّ المواطنة من القضايا ذات الأبعاد السياسية والاجتماعية التي تعبّر عن معايير الانتماء الوطني لدى الأفراد كما أنّها من القضايا الشائكة التي تعكس مدى إدراك المواطن لواجبه اتجاه وطنه من خلال الأفراد عامةً والشخصيات الوطنية البارزة مثل شخصية خير الدين الزركلي خاصةً، فهل سيكشف لنا هذا البحث عن أصالة الانتماء الوطني عند خير الدين الزركلي؟

3-أهمية البحث:

إذا ما أردنا إعادة تعزيز لفكرة المواطنة في ظلّ ظروفٍ تكاد تنشؤه فيها هذه الرّؤية، فلا بدّ من العودة إلى الجذور الأصلية، وإعادة استقراء تلك الأفكار من خلال شخصيةٍ سوريةٍ وطنيةٍ تجلّت بالحسّ الوطنيّ والإنسانيّ كشخصية خير الدين الزركلي، فهو عملية إحياء لتراث الوطني في وقت حرج تحتاج فيه إلى تعزيز هذه المفاهيم في حياتنا مجدّداً.

4-أسباب اختيار البحث:

تكمن أسباب اختيار البحث في مجموعة من النقاط الآتية:

1-خير الدين الزركلي شاعرٌ له رؤيةٌ وطنيةٌ أسهمت في خلق مرحلةٍ جديدةٍ من الوعي الوطني.

2-انتماؤه الوطني الذي برز واضحاً في مرحلة الاستعمار الفرنسي.

3-إنّ خير الدين الزركلي صوتٌ مؤثّرٌ في مسامع الناس عموماً.

5-أهداف البحث:

1-تقصي بواعث الانتماء الوطني لدى خير الدين الزركلي.

2-الوقوف على ذخر من تراثنا الأدبي لشاعر من أبرز الشعراء الذي يعتدّ بهم.

3-كيفية تجلي المواطنة في شعر خير الدين الزركلي.

6-أسئلة البحث:

1-كيف تجلت المواطنة في شعر خير الدين الزركلي؟

2-كيف سلك الضوء على الجانب الاجتماعي في شعره؟

3-ما السبل التي سلكها في سبيل نصرة بلاده؟

7-حدود البحث:

يدرس هذا البحث البعد الاجتماعي للوطن والمواطنة في شعر خير الدين الزركلي زمن الانتداب الفرنسي على سورية عام 1920م.

8-منهج البحث: تقضي منهج البحث المنهج السيميائي لقدرته على الاستجابة لبنية النص الفكرية والفنية إضافة للاستعانة بالمناهج الأخرى (النفسيّ-التاريخيّ-الاجتماعّي)، وذلك وفقاً لمتطلبات البحث.

9-مصطلحات البحث والتعريفات الإجرائية:

الوطن لغة: الوطن مكان إقامة الإنسان ومقرّه، وواطن القوم أي عاش معهم في وطنٍ واحدٍ محدثة أي ليس لها أصل في اللغة[1]كما استعملت لفظة ديار بقوله تعالى:﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا... ﴾[2]، والأرض هي مستقر الإنسان ومقامه، وتمتدّ جذورها إلى آدم وزوجته حين أهبطهما الله إلى الأرض بعدما كانا يسكنان الجنة ويأكلان منها رغداً حيث شاءا شريطة ألاّ يقربا الشجرة الملعونة فلما عصيا الله عاقبهما الله تعالى بإنزالهما إلى الأرض والبقاء فيها مع امتداد ذريتهم إلى قدرٍ معلومٍ قال تعالى:﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36)﴾[3].

الوطن اصطلاحا: هو الأمّة، فالأرض التي عليها أمة من الناس مستقرين هي الوطن ما داموا متفاعلين مع هذه الأرض لغةً وتاريخاً وعاداتٍ، فكلّ من انتمى بهذا الوصف، فهي وطنه[4].

المواطنة لغةً: مصدر الفعل واطن بمعنى شارك في المكان إقامة ومولداً؛ لأنّ الفعل على وزن فاعل[5]

المواطنة اصطلاحاً: التزاماتٌ متبادلةٌ بين الأشخاص والدولة، فالشخص يحصل على حقوقه المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية نتيجة انتماء لمجتمعٍ معينٍ، وعليه في الوقت ذاته واجباتٌ يتحتم عليه أداؤها[6].

المواطنة في شعر خير الدين الزركلي

المواطنة من القضايا ذات الأبعاد السياسية والاجتماعية التي تعبر عن معايير الانتماء ومستوى المشاركة من قبل الأفراد في الذود عن الوطن، والمواطنة تمتّع الشخص بالحقوق والواجبات وممارستها في بقعةٍ جغرافيةٍ معينةٍ دون اختلاف في الدين واللّون والعرف والجنس، كما تعبّر عن وعي الفرد بهذه الحقوق والواجبات والنظر إلى الآخر وصيانة المرافق العامة والحرص على المصلحة الوطنية، وتعكس مدى إدراك المواطن لدوره في مواجهة التحديات التي تواجه المجتمع والدولة في آنٍ واحدٍ، وقد تبلوّرت فكرة المواطنة بشكل أكثر دقةً بعد ما عانت الأوطان العربية ما عانته في ظلّ الاستعمار والتتريك ونزفت آلالام الحربة المسلوبة، فشرعت تنشد ترياق الإباء من معاقل النفس العربية، وتستجدي وعي الضمير من رؤى الأفئدة إلى أن آنت صحوة الوجدان العربي ممثلةً بالأدب العربي كنز الأمة الثرّ الذي تنصب سنم الثورة رافضاً وموجّهاً ومحرّضاً ومنذّداً بممارسات الغاصب المعتدي، ونافضاً للغبار عن معدن الغيرية العربية التي جعلت ألف ميتة ولا حياة بذل شعاراً لها ناضل الأدب العربي، وحمل راية الدفاع عن الوطن بكونه عاملاً من عوامل النماء لمختلف ميادين الحياة وبوصفه صوت الحق الصادح للأمة كلها، ولم يقف مكتوف الأيدي حيال ما اكتنف الأمة من أحداثٍ على مرّ الزمان بل حمل على عاتقه مهمة المدافع والمواجه للتحديات والأزمات كافةً كما شنّ حروباً أداتها الكلمة، وجاهد لإبطال كلّ محاولات السيطرة على أقوات الشعوب المغلوبة سواء أكانت هذه المحاولات خارجية ممثّلةً بالاستعمار أم داخليةً متجسّدةً بالفئات

---

[1] المعجم الوسيط، مجموعة من المؤلفين، دار الدعوة، ت: مجمع اللغة العربية، (د. ت)، مادة وطن.

[2] سورة البقرة، الآية 246.

[3] سورة البقرة، الآية 36.

[4] النشمي، عجيل، الوطن والوطنية في ميزان الشريعة الإسلامية، مؤتمر رابطة علماء الشريعة بدول مجلس التعاون الخليجي، (د. ت)، ص1.

[5] العدناني، محمد، معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة، مكتبة لبنان، بيروت، ط١٤٠٤هـ،١٩٨٤ م، ص٧٢٥.

[6] مان، ميشيل، موسوعة العلوم الاجتماعية مكتبة الفلاح، الكويت،١٤٠٤ هـ،١٩٨٤، ص110.

المستغلة من أبناء الأمة برز الأدباء ندماء للحرية حاملين على عواتقهم مهمة تنمية قيم المواطنة لدى الأفراد باعتبارها صمام أمان لتماسك النسيج المجتمعي، والتي تشكل بدورها هوية كلّ أمة وتميزها عن باقي الأمم الأخرى .

ومن الأدباء الذين انتدبوا أنفسهم لهذه المهمة الشاعر خير الدين الزركلي حيث يلحظ الباحث في شعره قضايا عدّة لعلّ أبرزها قضية الانتماء والمواطنة، ولعل مثل هذه القضية في شعر الزركلي تعكس مدى الخطورة التي اكتنفت تلك الحقبة، والتي ألحت بدروها على تفتّح الوعي العربي والدخول في مرحلة اليقظة المتكاملة.

ففي خضم هذه التخبّطات التي عاشتها سورية بين أفول دولة العثمانيين واستباحة الاحتلال الاستعماري الجديد ممثلاً بفرنسا تشكّل وعي الزركلي، وأصبحت مهمةُ مقارعة الاحتلال والتنديد بممارساته هاجسه الدائم، وعمله المتفاني، وهذا ما خلّده شاعراً وطنياً وعلماً من أعلام الشعر العربي الحديث.

والمتتبع لأدب هذا الشاعر يتلمس عميق حبه للوطن ورفضه للاستعمار والتطبيع الممنهج بشتّى صوره وأنواعه وتغنيه الدائم بفجر الحرية والاستقلال.

تصدّى الزركلي للفرنسيين بفكره وقلمه، فكان محرضاً للثورة ضدّ الفرنسيين ومعارضاً لدخولهم، فحُكم عليه بالإعدام ممّا أضطره لمغادرة البلاد، وقضى حياته متنقلاً بين البلدان العربية عاكفاً على رسم النضال والكفاح حتّى صار الزركلي أيقونةً للمواطنة وقمّةً باذخةً من الأدب والنضال والفنّ.

إذاً كيف تجلت المواطنة في شعر الزركلي؟

وكيف تعامل مع قضية انتهاك الأرض واستعمارها؟

وما التأثير الذي أحدثه الزركلي على الساحة السياسية الساخنة آنذاك؟

وكيف تجسدت الحرب الفكرية في شعره وما مدى أثرها في شحذ الهمم وتعبئة النفوس ضد المستعمر؟

فهل ظلّ يناشد الكلمة في محرابها وحسب أم زج بنفسه في أجنة معتركها ليشهد مخاضها غسّاقاً حميماً يتساقط فوق رؤوس المعتدين؟!

البعد الاجتماعي للمواطنة في شعر الزركلي:

الزركلي ابن الواقع الذي يعايشه ونتاجه مرآة الظروف التي يكابدها، ويحكيها حال الشعب المنكوب، فلا ريب والحال هذا أن يكون شعره استقراءً للوقائع المتتابعة واستنطاقاً لتداعيات الأزمة وتعبيراً عن مشاعر الرفض الوطنية، إضافة إلى معالجة الوقائع الحياتية في ظلّ الظروف الاجتماعية البائسة التي أورثتها التبعات السياسية الظالمة ،إذ يبرز الزركلي مناوءاً عن الفئات المجتمعية المُستغلَة، ومنتصراً لها من الاستعمار وطبقات الاستغلال والبرجوازية، كما يشير إلى ضرورة سيادة العدل في الواقع الاجتماعي، ويعطي رؤيةً متكاملةً لجميع ما يحيق بالوطن من تخبّطاتٍ زعزعت الاستقرار المجتمعي ،وأسهمت في تخلفه كقوله في قصيدة" وطني":

ويلي على وطنٍ يهدمه	من كنت آمل أن يشيده
كم صائحٍ: وطني! حسبت به	كشّاف غمّته، ومنجده
داربتْ بهِ الأيّامُ دورتَها	وارتعتْ حينَ رأت مشهدهُ!
أبصرتهُ هدفاً له وطني	والسهم بين يديه سدّده
تخذَ الولوع بحب موطنه	شركاً له وبغى تصيّده[1]

[1] الزركلي، خيرالدين، ديوان الزركلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ ،١٤٠٠هـ ،١٩٨٠م، ص33.

ونراه يجرّح بتلك الفئات المؤيّدة للطامعين بأرض الوطن وهليمانه، ويغوص في أعماق الإرادة الشعبية؛ ليستدلّ من خلاها على إرادة الحياة والخلود:

قلْ للمشيد بذكرهم هلاّ انثنى وعليهِ من كلحِ الصّغارِ برودُ
خانَ العهودَ فلم تبرّ يمينه وعلى رؤوسِ الخائنين شهودُ
ويؤكّد أنّ في بلاده شعبٌ لا يبيعُ حرّيته ولا يؤجرها:
في ذمّةِ الأجيالِ نهضةُ أمّةٍ أودى بها التهويلُ والتهديدُ[1]

كما يزمجر في صفوف الجماهير الساكنة، ويدعوهم إلى عدم الاستكانة وعدم التسليم؛ لأنّهم أصحابُ حقٍّ، ويحثّهم على التمسّك بوحدة الصف؛ لمقاومة القوى الاستعمارية التي تسعى لهدم الكعبة النضالية الجاذبة للتظافر والوحدة:

هيّا إلى صونِ البلادِ هيّا بنا إلى البناءِ
المجدُ في الجدّ ولا يُدرَكُ مجدٌ بالوناءِ
هيّا إلى نهجِ العلاءِ إلى امتطاءِ الكبرياءِ
إلى السّنا إلى السّناءِ هيّا إلى شقّ السّماءْ
صيحة جيّاش دعا
في الناس لا في الأيك
هل الصدى: لبّيك؟
أسمعه حيّا[2]

انتهت هذه القصيدة بنهايةٍ حائرةٍ، صبّ فيها الشاعرُ جلّ ما يعتمل في نفسه من تخبّطات إنّها الحيرةُ الطّاميةُ والهواجس المتعدّدة التي تتمحور جلّها حول تحرير الأرض ومواجهة التداعيات كافة، يقدّم فيها مزجاً بين الأمل والألم، بين اليأس والتفاؤل، بين الخوف من الاستكانة والحتمية في خوض معركة الوعي كلّ ذلك في تناغمٍ نصّيٍّ مستفيضٍ يحاكي لواعجَ الشاعرَ المُتّقدة إزاء مآزق الانتداب والتبعية، ولا غرابةَ في ذلك، فحين ينشأ الشاعرُ في المجتمع العربي يخالط ضمير هذا الشعب نوعٌ من الاحساس بأنّه أضحى قادراً على أن يعبر عن ذاته، وأن يتحدّث حديث هذه الذات في الذي يصهرها من شدائد أو تتفيأه من نعيم.[3]

انطلاقاً من حتمية الوجود الحرّ للإنسان حارب الزركلي الفئات التي حدّت من سبُل الحرية الاجتماعية، وعملت على تفريغ الكرامة الإنسانية من مضامينها، ودبّ التفرقة طائفياً ومذهبياً وعرقياً وفي كلّ مجالٍ من مجالات الحياة:

صاحَ أنذرْ أمّةَ العربِ التي أبتِ اليومَ هوانَ الخاملين
نفضتْ عنها غبارَ الضّعفِ بل بعثتْ من ميتةِ الذّلّ المشين
ليس ينجيها من الموتِ سوى دأبٌ تُخضِع فيه الشامخين[4]

---

[1] ديوان الزركلي، ص 118.

[2] المصدر نفسه، ص 75.

[3] فيصل، شكري، خير الدين الزركلي بين الشعر والنثر، مجلة المعرفة، عدد١٩٥، آذار-أيار١٩١٨، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سورية، ص121.

[4] ديوان الزركلي، ص103.

ورأى أنّ الوطن يحتاج إلى عنوانٍ واحدٍ يجمع كلّ المكونات، ويزداد غنىً بتنوّع هذه المكونات، وبالتالي فإن أي غيابٍ لأحد هذه المكونات ينقص من تكامله وتلاحمه، وليس العكس، فللعزّة شرطٌ أوّلٌ، وهو الحرية التامة، فإذا تحقّقت الحرية كانت سبيلاً إلى الحرية الاجتماعية وطريقة للتخلّص من أمراض المجتمع (الجهل، الفقر، المرض)[1].

عمد الانتداب إلى خوض حربه ضد الإنسان قبل الأرض، وأدرك أنّه متى ما استطاع الفتك بالإنسان فقد ربح الحرب؛ لإدراكه أن الإنسان هو المنبع الأساسي لأي خطرٍ متحصّلٍ، وبالتالي فهو المحرّك الحتمي لأي ثورةٍ وتغييرٍ.

صوّر الزركلي واقعَ الناس أصدقَ تصويرٍ وأفرد جانباً كبيراً من أدبه للفقراء والمستضعفين، من ذلك رثاءه المؤثّر لرجلٍ ألقى بنفسه في البحر، وهو الذي كان ربّاً لأسرةٍ مؤلّفة من ثمانية أشخاصٍ، عجز عن إعالتهم حيث ألقى بنفسه تخلصاً من الحياة الضنكة، فأوجز عليها:

ما بالُ بيروتَ لا تبكي اليوم بها دماً وتضطربُ الأكبادُ من ألمِ

ألقى إلى اليمّ بالنفس التي كَرُمَتْ يدعو المنيّة لم يوجلْ ولم يجمِ

وسارعتْ نحوهُ النّظّار تنقذُهُ ومن يغيثُ طلوبَ الموتِ والعدمِ

قضى شهيد صغارٍ لا نصير لهم ولا مغيثَ فأبكى مقلةَ القلمِ[2]

ورأى أنّ البحر لم يقتله، ولكن ما قتله جشع الأغنياء وغفلتهم عنه وعن أمثاله من الفقراء:

ما كان قاتلك البحرُ الخَضِمِ وما أودى بشخصِكَ موجٌ شامخُ القممِ

لكن رمتك بشرٍّ قد دُهيت به أطماعُ معشرِ سوءٍ حائفٍ نَهِمِ[3]

ودعا إلى الانتصار والبذل وتحطيم صنم الماديات، فكلّ أموال الأرض ليس لها وزنٌ في لحظةِ مأساةٍ إنسانيةٍ:

يا أيّها الناسُ ما لبعضكم ض نّ ببعض المكنوز والموروث

أفضلُ المالِ ما كفاكم ووقّا كم خضوعاً لفاجرٍ أو خبيث

خيرُكم مطعمُ الجياعَ، ومُعطي مُعتفيه، ومسعفُ الجياع[4]

---

[1] القصري، محمد فائز، النهضة الأوروبية وأثر الثقافة العربية الإسلامية، مطبعة زيد بن ثابت، د.ت، ص198.

[2] ديوان الزركلي، ص193.

[3] ديوان الزركلي، ص194.

[4] المصدر نفسه، ص107.

كما عرض مشاهد من الفجائع التي خلفتها الحرب العظمى حينما انقسم العالم إلى فسطاطين على حياة الناس، فها هو الجوع ينالُ من أم حانيةٍ، فتساوم حقيراً على أغلى ما تملك؛ لتحمي طفليها من الموت المحتّم:

يطالبُها أبناها بما يطعمانَهُ ومن ثَمَّ إلاّ ما حبا المُتصدّق!

وضاقَ عليها العيشُ حتّى إذا مضتْ صبيحةَ يومٍ لا ترَى أين تطرقُ

فألقت على وجه السّحوات نظرةً تكادُ إذا تُلقى على الصّخر تخرِقُ[1]

إلّا أنّه غدر بها وسرق الدراهم، وفرّ هارباً، فعادت بخفّي حنين، لم تجنِ إلّا سلقاً بألسنة الناس الحِداد:

يسيرُ بها الجاني عليها سبهلاً ويزجرها أنْ لا تحيد، فتلحقُ

وظلّلها نهجُ السبيل فرامها بحيلةِ خدّاعٍ دنا بتشدّق

دعاها لتعدادِ الدّراهم علّهُ يضيفُ إليها ضعفها، وهو مشفق

وشاغلها حتّى تَوَارى، فأقبلتْ تصيحُ به: أين انطلقتَ وترمقُ

ولكنّه ولى، وخلّى سبيلَها وخلّفها، والويلُ كالليل مُطبقُ

فلا درهماً نالتْ، ولا نفسها وقت ولا لقيت إلا الأذيةَ توبقُ[2]

ودعا الأغنياءَ صراحةً إلى مساعدة الفقراء وتقديم يد العون لهم بأسلوبٍ لا يخلو من العتب واللوم:

أما من رؤوفٍ أوسعَ اللهُ عيشَهُ يرقّ لمنْ أضناهُ عيشٌ مضيقُ

أما من غيورٍ ينقذُ النفسَ بالجد يردّ به سهمَ الشّقاءِ المُفوّقُ

إذا لم يغنِ أهلَ اليسارِ ابنُ فاقةٍ لهُ في كلا خدّيه للدّمعِ خندقُ[3]

كما يلقي الضوء على ظاهرةٍ بدا شيوعها في تلك الحقبة، ألا وهي

إكراه الأهل للفتاة على الزواج من مسنٍّ كبيرٍ؛ لغناه تخلصاً من الفقر:

---

[1] المصدر نفسه، ص150.

[2] ديوان الزركلي، ص151.

[3] المصدر نفسه، ص151.

نهضت من نومها، والفجرُ زاهٍ، والقمر –يتعجّب

وشعاعُ الشّمسِ منثورٌ اللآلي والدّرر –يتهلّب

طرق الباب عليها أبوها، والعبر –تتأهّب

ناجياها بحديثٍ أكثرتْ فيه الفكرَ –تتهيب

يستشيران فتاةَ الدّلِ في سحرِ المقال

عن خطيبٍ جاء يسعى، وهو ذو جاهٍ ومال

وله ستون عاماً، وهنا كان الجدال[1]

حيثُ ينجحُ الأهل بإقناعها في قَبول هذا الزواج بحجّة أنّه شيخٌ كبيرٌ سيقضي نحبهَ بعد حينٍ:

قالتِ الأمُّ لها: يا حبّةَ القلب اقنعي بالنصيب

هو شيخٌ، سوف يقضي بعد حينٍ، فدعي ما يريب

ترثينَ المال جمّاً، فهلمي واجمعي ما يصيب

والأبُ الجاهلُ مصغٍ لهما –ذا طمعٍ بالخطيب

اقنعا بنتهما، فارتضتِ الشّيخَ، فطال

مكثُها في أهله مكثاً على أسوءِ حال

ترقب البنتُ بموت الشيخ، حلا من عقال[2]

لكنّ القدرَ له كلامٌ آخرٌ، فها هي ثروة الشيخ تتبدّد، وها هي آمال الفتاة بالخلاص تتلاشى:

قيل بادت ثروة الموسر –فاستمطر مدمع كلّ راء

تكب الشيخ بما أحرز من وفرٍ، فأسرع –للبكاء

ودهى الحسناء همّمتنها منهُ نكال

---

[1] المصدر نفسه، ص119.

[2] ديوان الزركلي، ص120.

خسرتْ آمالَ البيضِ وباتتْ في خبال

تشتكي غيرَ الدّهرِ وآلام المآل[1]

ومع انعدام الأمل تنعدم الرغبة في الحياة، ويغدو الموت الملاذ والمجير، فها هي تتخذ قرارها للمرة الأولى، وتضع نهاية لكلّ ما حاق بها من ظلم

سدلَ الليلُ على الآفاق يوماً حجباً وستور

فأفاقت وهي لا تفتر تغلي غضباً وتفور

رفعت كأسا من السّم وقالت: عطباً ودثور

خففي يا كأسُ عني بالمنون النّوبا–والشرور

طمعَ بالنشب الزائل يلقي في وبال

لثمتْ قاتلها–فارتشفته كالزّلال

وارتمتْ تبسمُ للموت بثغرٍ متلال[2]

أراد الزركلي بهذه القصيدة الشعرية الحرية للمرأة، فدعاها إلى التماس نورانيةَ الملائكةِ في داخلها والإصغاء إلى نداءات الحياة الباعثة على الأمل:

لو درى قلبك يا بنتَ الضحى أخت الشفق–في الفضاء

لو درى من أنتِ لاهتزّ فخوراً وخفق–بازدهاء

أنت سرّ الكوكب اللاّمع تجلين الغسق–بالسّناء

أنت أم الطفل –أنت علمته السبق سبق–في العلاء[3]

[1] المصدر نفسه، ص120.

[2] المصدر نفسه، ص121.

[3] المصدر نفسه، ص122.

ثم دنا فتدلى ليصلَ بها إلى المحور الجوهريّ من وجودها، ويوجّه فكرها إلى نفاسة الرسالة التي تقدمها للحياة والإنسان، فهي المقياس الحضاريّ الأوّل للعائلة وبالتالي للأمة[1]:

فكري ظنٌّ أنت، وابني الرأي للمستقبل فهو آتِ

واشحذي عزمك وامضي في حياةِ العملِ–بأناةِ

وانهضي بالشّرقِ إنّ الشرقَ مثوى العِلل–في الفئاتِ

وأعدّي عدّة العلمِ بشأن المنزل يا فتاة

ستشيدينَ بناءَ المجدِ–يا أمَّ الرجالِ

وتعيدين ربوع العزّ، تزهو في جلالِ

فانفضي عنك غبارَ الهونِ، واسعي للكمالِ[2]

وقد دعا صراحة إلى الاهتمام بتعليم المرأة، انطلاقاً من إيمانه بفعاليتها في التغيير وإعادة البناء:

إنّ الفتاة إذا تكحلَ جفنُها بالطّهر، كانت للنواظرِ إثمدا

وإذا الفضيلة أوّدت أعطافَها زهواً تبارك عطفُها متأوّدا

إنّ ابنةَ اليومِ المقلّد لبّها علماً لأحمدَ في الغداةِ تقلّدا[3]

ونبذ العادات المجحفة بحقّ المرأة، والتي تحرّم عليها أبسط حقوقها، ورأى أنّها ليست من الإسلام في شيء، فكثيراً ما ساد في المجتمع أن المرأة جزءٌ تابعٌ منعدمُ الكيانِ والاستقلالية كما في قصيدة (مشقياها مسعداها)، والتي صور فيها التآمر الاجتماعي على المرأة، فالزّوج في زواجه من المرأة ظنّ أنّه امتلكها وكبل إرادتها، وتناسى أنّها كيان قائم بذاته يمتلك أحقية التفرّد في الرؤية والرأي والحياة فها هو يمنع زوجته من زيارة ذويها؛ لتثور على ظلمه، وتخرج من دون إذنه:

حنت إلى دارها فتاةٌ وشاقها أن أباها

فأوجس الزّوجُ خوفَ سوء وقالَ ما تبتغي تراها؟

وصدّها عن أبٍ وأمٍّ وفي صحنِ دارِهِ حِماها

وهاجَها شوقٌ فهمت بنبذِ أمرِ الذي حواها

---

[1] المسلط، صالح الهواش، جوانب من نضال المرأة في الجزيرة العربي،1997م، ص13.

[2] ديوان الزركلي، ص122.

[3] المصدر نفسه، ص201.

فحاولتْ سيرها مساءً فجاءها الزّوجُ في مساها
رأى اهتماماً بأمر سير فظنّ سوءاً فما نهاها
لكنّهُ قال في ازوراءَ بيني فعنك الهوى تلاهى
واجهشتْ بالبكاء حيناً فلم يرقَّ زوجَها بكاها
فغادرتْهُ إلى أبيها تشكو إليه الذي دهاها[1]

إلا أنّ سلسلة الظلم والجهل الاجتماعي في تتابع، وهيهات أن تجد تلك المرأة من يحتويها، فالمجتمع الذكوري يفيض عزةً مشوهةً، والرّجلُ من يقسو لا من يربت تحت ذريعة العادات والتقاليد، فها هو الأب يتشارك في أذيتها هو الآخر، وينحاز إلى طرف الزوج مطالباً إيّاها بالعودة من حيث أتت، لولا تدخل الأم التي رأت أن تمكث زماناً، لكن الأب أمعن في القسوة رافضاً ذلك، ومصرّاً على عودتها إلى بيت الزوج فهو دار المحيا والممات:

لما رآها الأبُ المُرجى في شجوها قال: ما عراها
قصتْ عليه الحديثَ لما خالتْهُ يرثي لمشتكاها
فما أتمتهُ وهي تبكي إلّا وقد همّ في أذاها
فأقبلتْ أمُّها عليه وقد غلّ الغيظُ في حشاها
تقول بالله لا تعدّها وأبقها ريثما نراها
فقال: كلا فلن أراها فقبرها أو حمى فتاها[2]

إلا أنها رفضت هذا الواقع؛ لتختار لنفسها واقعاً آخر تحياه على صعوبته:

وعادتِ الخودُ وهي تسعى طريدةً نحو من قلاها
وحين دانتْ دياره لم يملكُ لها حزنها حجاها
كانت لها وجهةٌ وحادت فاتخذت وجهةً سواها[3]

[1] ديوان الزركلي، ص185.

[2] المصدر نفسه، ص185.

[3] ديوان الزركلي، ص186.

ولعلّ تكبيل حربة المرأة وحصرها في منحى المهام البيتية على اعتبارها عنصراً منفعلاً لا فاعلاً أرداها ضحيةً لقسوة الظروف، حيث وجدت المرأة نفسها وحيدة تتصارع مع أصناف المعاناة في ظلّ غياب المعيل والسند ظهر ذلك في قصيدة (سعد وسعدى)، والتي طرح فيها الزركلي إشكالية الفقر في الاحتفال الذي أقامته جمعية النداء الخيري:

بكى وبكتْ فهاجَ بي البكاءُ شجوناً ما لجذوتِها انطفاءُ

رنتْ سعدى إليه وقد ألمتْ بها الأحزانُ واشتدّ البلاءُ

ترى أخويك قد باتا وبتنا حياءً لا شرابَ ولا غذاء

استجدي الورى؟ والناس إما ترجّي منهم حسناً أساؤوا[1]

فسعدى هي امرأة الزمن المأزوم تتصارع وأطفالها مع جدب الحياة وتحار، وهي العزيزة النفس في استجداء سبل سدّ الرّمق، وقد جعل الزركلي من هذا الطرح وسيلة؛ لبلوغ التنوير، فلم يكتف بإلقاء الضوء على المشكلة كما عهدنا عند غيره، وإنّما جاء بالحلّ مهلّلاً مبشّراً في قوله:

هلُمَّ إلى مبرّةِ أهلِ فضلٍ شعارُهم المروءةُ والسّخاءُ

إذا ما المستغيث أجابوا وفرّج عنه كربته النداءُ[2]

فقد آمن الزركلي بجانب الخير في نفوس الناس، وما كفر به على الرّغم الظّروف الضّاغطة آنئذٍ، ورأى أنّ التعاضد هو السبيل الأنجح للتخفيف من وطأة الواقع المأزوم.

أشار الزركلي إلى انعدام الأخلاق في المجتمع، وتراجع قيمة الحقّ مقابل سيادة منطق القوة، وأنّ حب المناصب استبدّ في قلوب الناس وعقولهم حتى غدا آفة العصر، ورأى أنّ نجاة الشعب لن تتحصل إلّا بصحوةٍ كبرى:

أية نفسٍ من أسى ناجيه والناسُ في حالكةِ داجيه

هذا ينادي منصبي منصبي! وذاك: تاجي ويحكم تاجيه

وإنّما الفوزُ لشعبٍ صحا والخسرُ حظظ الأمةِ السّاجية[3]

وظاهرة اليتم منعكسٌ طبيعيّ لمرحلةٍ وسُمِت بالكفاح، فمن المعلوم أنّ الحروب تسفر عن نتائجَ مباشرةٍ وأخرى غير مباشرة على الصعد كافةً، ولعلّ الاضرار المنعكسة على الجانب الاجتماعيّ هي الأشدّ خطراً؛ لأنّها تستهدف المعمار الإنسانيّ في

---

[1] المصدر نفسه، ص37.

[2] المصدر نفسه، ص38.

[3] ديوان الزركلي، ص156.

الصميم، فإذا ما هدمت البنية التحتية، فإن الانسان قادرٌ على الإعمار في كلّ وقتٍ وحين، ولكن إذا ما هُدّم وهُشم الإنسان فمن ذا الذي يقدر على بناء الإنسان!

أدرك الزركلي خطورة هذه المسألة على الأجيال التي شبّتْ مفتقرةً إلى كنف الأبوة، فتوقف عندها وأفرد لها جانباً مشرقاً من قصيدته "في مجمع الأيتام" التي ألقاها في القدس احتفالاً بافتتاح مدرسة الأيتام الإسلامية من خلال تصوير معاناة امرأة حال الموت بينها وبين زوجها تاركاً لها ثلاثة أطفال لا يكفّون عن السؤال عن والدهم مبرزاً معاناتها وآلامها:

رأيتُها تندبُ أيّامَها وتصلُ الأدمعَ بالأدمعِ

في يدها طفلٌ ومن حولها طفلان–تشكو حرقَ الجوعِ

يسألُها أدناهم للرّدى ما لأبي–غابَ ولم يرجعِ؟

ألا يؤوبُ اليوم أو في غدٍ يطلعُ كالكوكبِ من مطلعِ[1]

وقد رأى الزركلي في افتتاح هذا المجمع بشرى سارةً وتفاءل خيراً بغدٍ أفضل:

يا معهدَ الأيتامِ منك الألمى في الغد يحمون حِمى الأربعِ

قد تلذُ الأيّامُ من لا يعي إلّا وقد نافَ على تبّعِ

القِبلة الأولى إذا لم تحطّ بالعلمِ ذاقتْ ألمَ المصرعِ[2]

ثم يتحين الفرصة للاستثارة والاستفاقة، وإحكام الترسانة الدفاعية حول الأوطان:

الناسُ أيقاظٌ خلا أمّتي والدّهر وثّاب على الهجّع

ليتَ لنا من خطبنا مفزعاً والشرّ مخشي من المفزعِ

إن لم نصنْ نحنُ تراثَ العُلى فإنّه بين يدي زعزع

من واصلَ السعيَ إلى مهيعٍ أوصلهُ السعيُ إلى المهيعِ[3]

---

[1] المصدر نفسه، ص181.

[2] المصدر نفسه، ص182.

[3] المصدر نفسه، ص182.

لقد استطاع الزركلي بمثل هذه القصص الشعرية المستقاة من الواقع تصوير الكوارث، وفرط المجاعات التي أورثتها الحروب، وحاول تقديم حلولٍ للأزمات التي عصفت بالواقع، كما ألقى الضوء على واقع المرأة وما تكابده من معاناة، فتبنّى قضيتها وأطلق الشعارات الداعية إلى إنصافها، مشيراً إلى عظم دورها في بناء المجتمع وتعزيز القيم السامية فيه كما أشار إلى ضرورة التلاحم يداً بيدٍ؛ لتضميد الجرح الاجتماعي النازف من خلال الإقبال على العلم، وتعزيز دوره في الحياة ورأى أنّه السبيل الأوحد للخلاص، والقاعدة الأساسية؛ لتجاوز الواقع المتردي.

فهرس المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم
2. –الزركلي، خيرالدين، ديوان الزركلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ ،١٤٠٠هـ ،١٩٨٠م.
3. –العدناني، محمد، معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة، مكتبة لبنان، بيروت، ط١٤٠٤هـ،١٩٨٤ م.
4. –فيصل، شكري، خير الدين الزركلي بين الشعر والنثر، مجلة المعرفة، عدد١٩٥، آذار–أيار١٩١٨، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سورية.

5. –القصري، محمد فائز، النهضة الأوروبية وأثر الثقافة العربية الإسلامية، (د. ط)، مطبعة زيد بن ثابت، د.ت.

6. –مان، ميشيل، موسوعة العلوم الاجتماعية مكتبة الفلاح، الكويت،١٤٠٤ هـ،١٩٨٤.

7. –المسلط، صالح الهواش، جوانب من نضال المرأة في الجزيرة العربي،1997م.

8. –المعجم الوسيط، مجموعة من المؤلفين، دار الدعوة، ت: مجمع اللغة العربية، (د. ت).
9. –النشمي، عجيل، الوطن والوطنية في ميزان الشريعة الإسلامية، مؤتمر رابطة علماء الشريعة بدول مجلس التعاون الخليجي، (د. ت).